من وحي انتفاضة الأقصى المبارك : أوضح من دَرْب التبّان !..

12-5-2002

بقلم : الدكتور محمد بسام يوسف

بقلم: الدكتور محمد بسام يوسف
أيا طفلَ فلسطين المسلم : تلك كانت آهاتي وصرخاتي الإحدى والعشرين ، تماماً بعدد أقطارنا العربية التائهة ، وبعدد جيوشنا المكدّسة ، التي تدفن رؤوسها في رمال الزيف والاستخذاء !..أيا طفلَ فلسطين المسلم : قاوِم ، واصمد ، ونادِ بالجهاد ، فإنما أنت تنوب عن أمةٍ ، تتكوّن من مليارٍ ونصف المليار إنسانٍ مكبَّلٍ بالنواطير : نواطير أميركة العاتية والغرب الصليبيّ ونواطير الدولة المزعومة الصهيونية اليهودية ، ونواطير كل شياطين الأرض !.. أيا طفلَ فلسطين المسلم : لا تتوقف ، فأنت الشرارة ، وأنت الموقد والتنّور ، وأنت النار اللاهبة التي ستحرق الأعداء الأوغاد .. فالحقيقة الربانية تنسلّ دائماً من طيش البطش ، ونورُ الحق يُشرِق من ظلمة الباطل والظلم والجبروت ، فهذه شمسهم قد بدأت بالغروب ، من تل أبيب إلى واشنطن ، وهذه شمسنا بدأت تُشرق ، من القدس إلى كابول ، ومن أفغانستان إلى فلسطين .. والزمن القادم هو زمنك ، وإكليلك ، ونصرك المؤزّر القريب ، فنصرُك قابَ مِقلاعَيْن أو أدنى !.. بإذن الله سبحانه وتعالى ، الذي لا نصر إلا نصره ، ولا تأييد إلا تأييده ، ولا تمكين إلا تمكينه ، ولا عزّ إلا عزّه :

(20)(على هامش أول مؤتمر قمةٍ عربيٍ دَوْريّ ، عُقِدَ بعد اندلاع انتفاضة الأقصى المباركة)من مستلزمات (سوق عكاظ) ، أن يتمتّع روّاده بأعلى درجات العلم ، والذكاء ، والوضوح ، ونفاذ البصيرة .. ما يساعد على اختيار أفضل القصائد ، التي تحمل فيما بعد اسم : (المعلَّقة) !..

(أسواق عكاظ) في القرن الحادي والعشرين .. أمرٌ مختلف ، بالطعم والنكهة ، واللون والرائحة .. فعبقريات هذا القرن ، لا تستحق أن تعلّق نتاجها فقط ، بل أن تُعَلَّق (أي العبقريات) كما هي .. اختصاراً للوقت ، في عصر السرعة الفائقة ، والحركة الدائمة !.. عندما تسأل (عَيْناً) من أصحاب العبقريات (على أساس أنّ "سِيناً" أصبحت من مخلّفات القرن الماضي)، عن رأيه في قضيةٍ أو لقاءٍ أو مؤتمرٍ ، باعتباره أحد أركانه المهمة ، يجيبك بتصريحه المقتضب :

(كانت الأمور واضحةً تماماً ، وهو أفضل مؤتمرٍ منذ عقودٍ طويلة ، لما تمتّع به من وضوح .. فالوضوح أساس كل شيءٍ في مثل هذه المؤتمرات !..) .

إذا تجرّأتَ أكثر ، ورجوتَ سيادته أن يفسّر كلامه ، ويوضّح حديثه عن الوضوح ، يقول لك وللجماهير التي تسمعه وتشاهده عبر الأثير :

(بما أنَّ انعقاد المؤتمر ، لأنّ الظروف ، لكن عندما يجتمع ، فلا بدّ ، من أن ، لما لذلك ، ليس عند الأشقّاء !.. وعندما ، لا يحسن ، بهم وبنا ، إلا أن نعبّر !.. فالارتياح التام !.. أما قضية ، اجتمعنا ، لكن الدورية بحدّ ذاتها ، ولا يمكن أن نقبل ، لأنّ إطلاق .. لم يكن . أما مبرّرات ، ذلك لا يعني بالطبع ، إلا إذا ، كان الذي . ونأسف على ما ، وسنعطي فرصةً أخرى ، لأنّ عملية السلام ، فهو لا يمكن إلا ، لأنّ ليس .. ما، لم ، لن ، كم هو !.. كيف إذا ، حصل .. وشكراً) !..

وبما أنّ كلّ مَن يستمع إلى هذا التوضيح ، الواضح للغاية !.. قد وقف مذهولاً ، لاندهاشه بتلك (الرائعة) ، من روائع (سوق عكاظ) المعاصر .. فإنّ (عَيْناً) آخر من أهل المؤتمر

تأخذه الحماسة ، لتوضيح ما وضّحه (عَيْنٌ) الأول ، بأسلوبٍ واضحٍ ، بعد أن قرأ بوضوحِ حَدْسِهِ ، في عيون المذهولين المندهشين .. أنّ (بعضاً) مما قاله زميله ، يحتاج إلى (وسائل إيضاح) !.. فيقول (أي عَيْنٌ الثاني) مكملاً موضّحاً :

(لا شك أنّ سيادته ، كان يقصد ، لكنني للتوضيح فقط ، ودون لَبْسٍ ، لا يمكن لي إلا .. فهو لذلك ، لأنّ فلسطين ، والجولان ، لا بل ، لأنّ ، كنت ، قد وافقنا ، بالإجماع .. والقدس ، ولن ننتظر ، خمسة .. ستة .. عشرة !.. لا بأس ، فهو إجماع ، نعم إجماع . وثلاث مئة مليون عربي ، والمجتمع ، لأنّ العنصرية ، كما قلت ، وقال ، ولم يقل ، ما كان قد قيل ، فالقول .. لعلّ أنّ عسى ، في مؤتمر السنة القادمة!.. وبارك الله بكم ، والعاقبة للمتّقين) !..

ثمّ ينصرف (عَيْنٌ) الأول مع (عَيْنٍ) الثاني ، إلى قاعة (العينات) ، وسط عاصفةٍ من (الذهول) و(الإعجاب) ، ليلحقا بركبهم (أي بركب العينات) ، الذين يوجّهون كلماتهم (الواضحة جداً) عبر الأثير ، إلى كلّ مكانٍ في الأرض ، وفي بعض الكواكب الأخرى !.. بينما ينصرف كلّ (مذهولٍ) أو (مندهشٍ) ، ممّن شخصت أبصارهم ، نتيجة استمتاعهم بفنّ (الوضوح والتوضيح) !.. ينصرف كلٌّ منهم ، متحسّساً (عقله) هذه المرة ، وليس (عنقه) أو (رأسه) !..

(21)

للذكرى وحسب : وعند (ديربان) المهزلة اليقين !..

أصغر طفلٍ فلسطينيٍ ، من أولئك الذين منعتهم قوات الاحتلال الصهيوني عن متابعة دراستهم ، بعد إغلاق مدارسهم ، أو من أولئك الذين يحمل كل منهم مِقلاعه وأحجاره ، من رفاق الشهيد الطفل (محمد رامي الدرّة) .. متيقّن من عنصرية الصهيونية !.. فهؤلاء الأطفال كلهم يعيشون في ظلّ العنصرية الصهيونية البغيضة في الميدان .. في الشارع والمدرسة ، والقرية والمدينة ، وفي مزارع الزيتون ، وعند عجلات الجرّافات التي تجرّف أراضيهم الزراعية ، وتهدّم بيوتهم التي تؤويهم !..

أصغر طفلٍ عربيٍ مسلمٍ ، من مثل الطفل العربيّ المصريّ المسلم (أحمد شعراوي) ، الذي ضُبِطَ عند الحدود المصرية - الفلسطينية وبين جَنْبَيْهِ حجر ، متوجّهاً إلى فلسطين لنصرة أطفالها ، الذين تُفقَأ عيونهم ، وتُكسَّر عظامهم ، من قبل اليهود الصهاينة .. يعرف أنّ الصهيونية والعنصرية أمران متلازمان ، لا يمكن أن ينفكّ أحدهما عن الآخر !..

كذلك كلهم يعرفون .. ومتأكّدون - أي : أميركة والأنظمة العربية و(كوفي أنان) - ، ويعلمون علم اليقين أنّ الصهيونية أعتى أشكال العنصرية !.. لكنهم ظالمون ، ومزوِّرون ، يحاولون حجب الشمس بغربال !..

يوماً بعد آخر ، تتأكّد الشعوب العربية والإسلامية ، من (نزاهة) الراعي (النـزيه) لعملية السلام الحربيّ !.. ومن نخوة الأنظمة العربية ، وجدّيتها ، وشدّة تفاعلها مع الانتفاضة الفلسطينية المباركة !.. ومن صِدق حياديّة المدعو : (كوفي أنان) ، الأمين العام (الفخري) للصهيونية العنصرية !..

بالأمس البعيد (في عام 1991م) ، وبعد أن أنهت الأنظمة العربية ، مع أميركة وأوروبة الصليبية .. انتصارها المؤزّر على شعب العراق العربيّ (العنصريّ) !.. في ذلك الأمس ، (بَصَمَت) تلك الأنظمة كلّها ، على قرارٍ يلغي قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية !..

وبالأمس القريب ، شاهدنا تلك الأنظمة بعد اندلاع انتفاضة الأقصى المباركة ، شاهدناهم في (أسواق عكاظٍ) عدّة ، أشدّ فلسطينيةً من الفلسطينيين أنفسهم !.. ففي مؤتمرات القاهرة وعمّان والدوحة و.. كانوا يتنافسون في إبراز عضلاتهم ، وفصاحة خطاباتهم ، وضجيجهم الذي غطّى ، حتى على صهيل خيول الانتفاضة ، وصليل سيوفها ، التي كانت حاضرةً في باحة الأقصى المبارك ، وهي الساحة الحقيقية لاسترداد الأرض والعزّة والكرامة !..

في (ديربان) ، شاهدنا على الهواء مباشرةً ، صورةً مصدَّقَةً لتحالف الأنظمة العربية (الشجاعة) ، مع الراعي (النـزيه) ، وربيبته الصهيونية العنصرية ، لكن بِحُلَّةٍ جديدة ، وهندامٍ آخر !.. وإذا كان اكتشاف الأنظمة العربية الذي تمّ مؤخراً ، بأنّ الصهيونية ليست عنصرية !.. فماذا يضير المدعو (كوفي أنان) ، الأمين العام للأمم المتحدة .. علينا ، أن يكون سبّاقاً لهذا الاكتشاف العظيم ؟!..

في (ديربان) ، كانت الأنظمة العربية (الحكيمة) .. مهذّبةً ، رصينةً ، وَقُورةً .. وصامتةً صمت الأصنام!.. لا تعجبوا !.. فللرصانة مكانها ، وللتهذيب والوقار ، والصمت أيضاً .. مكانه !.. فالأنظمة التي نشاهدها في المؤتمرات العربية ، الطارئة منها والعاديّة ، تملأ الدنيا ، وتَشغل الناس ، بخطب البطولة والكرامة والذَّوْد عن المقدّسات !.. وترفع عقيرتها بالصراخ وبيانات التنديد والاستنكار .. والاستغاثة ، وهتافات الدعم المزيّف غير المحدود لفلسطين ، وللانتفاضة الفلسطينية !.. الأنظمة التي أصدرت أسطواناتٍ فنّيةً ، لأعلى الأصوات الغنائية الحربية ، والموسيقى التصويرية الصاخبة الوطنية ، وأنتجت أفضل الأفلام والمسلسلات التلفزيونية والمسرحيات الاستعراضية .. دعماً مزعوماً للانتفاضة ، ولطفل فلسطين !.. الأنظمة هذه ، هي نفسها التي كانت في (ديربان) مضرب المثل ، في التهذيب والحصافة والصمت المطبق !.. وهي نفسها التي تملأ ساحات الأوطان العربية وشوارعها ، بالمدرّعات والمصفّحات والأسلحة الأوتوماتيكية وراجمات الصواريخ و.. عندما تتنفّس تلك الساحات والشوارع ، أو تحملها النخوة على المطالبة بنصرةٍ حقيقيةٍ فعليةٍ لفلسطين العربية ، ولشعبها الجريح ، ولانتفاضتها المباركة .

ما يلفت في (ديربان) ، أنّ المحاربين التلفزيونيين والإذاعيين ، ومناضلي المؤتمرات بمختلف أشكالها وأحجامها ومقاساتها ، من أبطال الصمود .. والتصدّي للمواطن المغلوب على أمره .. كانوا هناك أيضاً ، ولم يكونوا صامتين أو مهذّبين !.. فأولئك لهم في (كلّ عرسٍ قُرص) حيث لم يبخلوا على أهل المؤتمر ، وعلى العالم كله ، بالفائدة الجمّة ، والعلم المحض !.. فقد قدّموا محاضراتهم ، ونظرياتهم ، وتنظيراتهم .. بلسانٍ عربيٍ فصيحٍ ، وحَنجرةٍ ذهبيةٍ لا تعرف الصمت أو الهدوء !.. قدّموا للعالم رؤيتهم - الفذّة - للظلم ، وللاضطهاد ، وللعنصرية، وللعبودية ، ولإذلال الإنسان وامتهان كرامته وإنسانيته ، وانتهاك حقوقه الأساسية !.. ففي كلّ بلدان العالم اضطهاد ، وظلم .. إلا في بلادهم ، بلاد الصمود والتصدّي ، والمقابر الجماعية ، والمحاكم العسكرية الميدانية ، والإعدام على الكلمة ، والاختفاء بسبب شكل قَسَمات الوجه أو طريقة تحرّك الوجنات أو مُقَلِ العيون!.. وفي كل العالم عنصرية .. إلا في بلادهم التي تنعم بالطائفية البغيضة ، وتَسَلُّط الأقليّة الطائفية ، على الأكثريّة الكاثرة المسلمة من أبناء شعبهم !.. وفي كلّ الأوطان

قهر وإذلال وتعذيب واستبداد ينبغي القضاء عليه.. إلا في وطنهم ، الذي ينعم بالاستقرار ، وقوانين الطوارئ ، والأحكام العُرفية ، والسجون الصحراوية ، والقتل على الهوية ، ومنع كلّ أشكال الحرية ، بما فيها حرية دخول الحمّامات وبيوت الخلاء والخروج منها !.. وفي كلّ بلدان الأرض ديكتاتورية وأنظمة متخلّفة .. إلا في بلدهم .. بلد الحزب القائد ، حيث الحزب هو الوطن.. وبلد الزعيم الواحد الأوحد ، الذي ينتخبه الشعب بملء إرادته وكامل حرّيته ، بنسبة (99.9999%).. وبلد الجمهورية الوراثية ، والقائد الجمهوريّ إلى الأبد ، الذي يدخل قصر الرئاسة على ظهر دبّابة ، ولا يخرج منه إلا على عربة مِدفع !.. وفي كلّ دول الأرض تقصير ، واضطهاد، واعتداء على حُرُمات الدول الأخرى .. إلا في بلدهم ، الذي تزخر سجونه بالعرب الأردنيين والفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين والجزائريين و.. ، إلى جانب أشقّائهم السوريين !.. وفي كلّ المشارق والمغارب احتلال ، وأرض محتلّة ، وانتهاك لحقوق الإنسان .. إلا في بلدهم ، الذي يرفل بالسعادة والتحرير والعدل .. فلا لاجئون ، ولا وافدون ولا مضطَهَدون ، ولا مهجَّرون قسريّون أو مَنْفِيّون ، ولا أرض محتلة ، ولا جَوْلان يئنّ !.. وفي كلّ بلاد الدنيا تدخّل في شؤون الآخرين .. إلا في بلد الصمود والتصدّي .. فلا تدخّل ، إلا في شؤون لبنان الشقيق التوأم ، وفلسطين الجريحة حبيبة القلب ، والعراق المحاصَر الشقيق الذي لا يمكن الاستغناء عنه ، أليس هؤلاء كلّهم أشقّاء لنا ؟!..

في (ديربان) .. (طَقَّ عِرْقُ الحَياء) !.. ولم يخجلوا .. إلا ساعة التصويت على مشروع قرارٍ يساوي الصهيونية بالعنصرية !.. ما مكّن أميركة وإسرائيل ، من إلغاء مشروع ذلك القرار !..

اللافت في (ديربان) أيضاً ، هذا الزخم من التفاعل الجماهيريّ الرائع ، للجموع البشرية المتدفّقة في الشوارع والساحات ، خارج أروقة المؤتمر ، التي كانت تهتف لفلسطين ، وتحرق الأعلام الصهيونية !.. وقد كانت الهتافات بشتى اللغات ، بما فيها اللغة العربية الحقيقية غير المزيّفة ، التي يستخدمها المواطن العربي المسلم المتفاعل مع الانتفاضة الفلسطينية !.. وكانت الأمور هناك تسير بشكلٍ حُرٍّ نزيهٍ ، وعفويةٍ رائعة ، من غير رقيبٍ أو حسيبٍ أو خفافيش !.. إلى درجة أنّ المواطن العربيّ في كلّ أنحاء الوطن العربيّ ، الذي شاهد ذلك المشهد العظيم عبر الأثير .. تمنّى لو كان قادراً على التوجّه إلى أقصى الأرض .. إلى (ديربان) الحرّة الأبيّة ، ليتمكّن من التظاهر بحريّةٍ ، دعماً وتأييداً ومساندةً لانتفاضة الأقصى المباركة !..

مِسْكُ الخِتام !..

أيا طفلَ فلسطين المسلم : تلك كانت آهاتي وصرخاتي الإحدى والعشرين ، تماماً بعدد أقطارنا العربية التائهة ، وبعدد جيوشنا المكدّسة ، التي تدفن رؤوسها في رمال الزيف والاستخذاء !..

أيا طفلَ فلسطين المسلم : قاوِم ، واصمد ، ونادِ بالجهاد ، فإنما أنت تنوب عن أمةٍ ، تتكوّن من مليارٍ ونصف المليار إنسانٍ مكبَّلٍ بالنواطير : نواطير أميركة العاتية والغرب الصليبيّ ونواطير الدولة المزعومة الصهيونية اليهودية ، ونواطير كل شياطين الأرض !..

أيا طفلَ فلسطين المسلم : لا تتوقف ، فأنت الشرارة ، وأنت الموقد والتنّور ، وأنت النار اللاهبة التي ستحرق الأعداء الأوغاد .. فالحقيقة الربانية تنسلّ دائماً من طيش البطش ،

ونورُ الحق يُشرِق من ظلمة الباطل والظلم والجبروت ، فهذه شمسهم قد بدأت بالغروب ، من تل أبيب إلى واشنطن ، وهذه شمسنا بدأت تُشرق ، من القدس إلى كابول ، ومن أفغانستان إلى فلسطين .. والزمن القادم هو زمنك ، وإكليلك ، ونصرك المؤزّر القريب ، فنصرُك قابَ مِقلاعَيْن أو أدنى !.. بإذن الله سبحانه وتعالى ، الذي لا نصر إلا نصره ، ولا تأييد إلا تأييده ، ولا تمكين إلا تمكينه ، ولا عزّ إلا عزّه :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص:5)

12/5/2002م ا.هـ